

نشأة غاندى

من العظماء من يستطيع المؤرخ أن يهمل تاريخ أسرته ولا خسارة عليه ولا على العظيم الذى يكتب تاريخه . لأن فهم ترجمته لا يردنا إلى تراجم آباءه وأجداده ، ولا يزداد وضوحاً بالرجوع إليها .

ومتهم من ترتبط ترجمته وترجمة أسرته كما يرتبط الفصلان فى قصة واحدة ، فلا تفصله سيرته عن سيرهم إلا عرض لها بعض النقص ، أو بعض الحاجة إلى التساؤل والتفسير .

ذلك هو العظيم الذى تعرف أخباره وأخبار قومه فلا تزال تقول : نعم هذا هو جده الصالح ، هذا هو الأب الذى ينجله ، هذه هى الأم التى تغذوه بلبانها وتنشئه فى حجرها وتلقنه حروفه الأولى .

وغاندى من هؤلاء العظماء ، بل من أندر الأمثلة على الصلة بين حياة الأبناء وحياة الآباء .

كانت أسرته أصلح أسرة يخرج منها قديس مثله ، وكانت أمه على الخصوص هى الأم التى لا نستغرب خلقاً من أخلاقه ، ولا عملاً من أعماله ، إذا عرفنا سيرتها وعرفنا

ما تلقاه من كيانها وما تلقاه من قلبها ولسانها .
كان جده « أوتاغاندى ، رئيساً للوزراء فى « بور بندر ،
أو البلدة البيضاء ، وكان مع اشتغاله بالسياسة رجلاً لا ينسى
عهده ولا ينقض وده . ألقاه صراحتة إلى ترك وظيفته
والهجرة من بلده واللياذ بأمر إقليم « جوتا جاد ، . فلما لقي
الأمير سلم عليه بيده اليسرى إيذاناً من اللحظة الأولى ببقائه
على عهد أميره الأول ، وقال : إن يدى اليمى هى اليد التى
عاهدت بها أمير « بور بندر ، ، فلا أعاهد بها مرتين !
وكان أبوه كرمشاند غاندى — أو كابا غاندى ، كما عرف
بين أهله — هو الولد الخامس لجده ، والولد الأول من زوجته
الثانية . وقد كان وزيراً فى « راجكوت ، ، ثم وزيراً فى
« فانكاتار ، . ومات وهو يتقاضى معاشاً من حكومة
راجكوت . . .

وفقد كابا غاندى زوجتين قبل أن يتزوج بأمر غاندى
« بوتلباي ، ثالثة زوجاته ، ورزق منها بنتاً وثلاثة أبناء .
أصغرهم هو « المهاتما ، . . . الذى سعى موهانداس .
وليس « كابا غاندى ، قديساً ولا « مهاتما ، كولد الصغير ،
أو ولده الروح العظيم . ولكن ليس فى خلاقه ما يمنعه أن
يكون أباً لقديس أو مهاتما ، لأنه كان رجلاً صادقاً أميناً

مستقيم الطوية . لا يؤخذ عليه ، إلا أنه كان غضوباً صراحته إذا كان في الصراحة وفاء بواجب : تطاول به كبار الساسة على أميره في غيبته لحفظ الوزير الأمين غ أميره ورد على السياسي الكبير سوء المقالة بمثلها ، فخبه ليعتذر ، فلم يعتذر ، فأطلقوه .

وقد يؤخذ عليه أنه بنى بزوجته الرابعة وهو فوق الأربعين ، ولكنه لم ينقض بذلك عرفاً ولا خرج على عقيد وإنما هي الزعة الجسدية التي ورثها من أمته ، وغالبها فقد حين نذر نفسه للقدااسة والجهاد .

أما أمه ، بوتلباي ، فلك أن تقول إنها قديسة غير ذات رسالة . كانت تسكن في اليوم بوجبة واحدة من الطعام ، وكانت تصوم في معظم الأيام ، وكانت على غيرتها الدنيا متصرفه في عقيدتها . فقد قيل إنها نشأت من الطائفة الفشتاة الهندوكية ، فتحولت إلى العقيدة الجينية ، لأنها وجدت أقرب إلى النسك وأقرب إلى الكمال .

منها تلقى الوليد الصغير إيمانه بالصيام ، فكان عادة له حياته الخاصة ، وكان عادة له في حياته العامة ، بل كان أكثر من عادة في هذه الحياة التي حفلت بأحداث السياسة . كما حصناً يلوذ به لينتصر فيه أوليوت . فنذر الصيام خمس

عشرة مرة ، آخرها صيامه الذى نذره قبيل وفاته لسكف
عدوان الهندوكيين عن المسلمين ، وطال خمسة أيام . وقد طال
صيامه خمسة وعشرين يوماً فى إحدى هذه المرات .
ومن أمه ، أخذ ما كان يفعل فى تاريخه وتاريخ الهند
كلها من الصيام ، وهو الإيمان بعقيدة الجينية فى ، الالهسا .
أو السكف عن العدوان .

فلا تفصل عن ، الالهسا ، حركة من حركات غاندى ،
ولا دعوة من دعوائه ، ولا علة من علل نجاحه ، ولا خليفة
من الخلائق التى راض عليها عقله وطباعه . ولا تفهم رسالة
لغاندى فى السياسة أو السلوك أو آداب الضمير ، بمعزل عن
هذه ، الالهسا ، التى كان أصدق رسول لها منذ ارتفعت بها
دعوة فى البلاد الهندية ، لأنه رضعها من ثدى أمه ، قبل أن
يقطعها من مرشد إلى أدب ، أو مبشر بدين .

• • •

ولد موهانداس فى اليوم الثاقى من شهر أكتوبر
سنة ١٨٦٩ ، فى بلدة ، پوربندر ، كما تقدم . وهى بلدة من
إقليم يقع بين السند ويومباى يسمى الكوجرات ، وينفرد
بلغته وبعض عادات أهله بين الأقاليم الهندية .
وقد روى لنا غاندى فى سيرة حياته . أو فى

اعترافاته ، شيئاً من المحن التي عرضت له في صباه .
قال : إنه كان جباناً ، وكان يستمع إلى الأحاديث عن
الصوص والأشباح والشعابين فيفزع منها ولا يجرف على
الخروج من بيته في الظلام ، ولا ينام في حجرته إلا على نور .
وظل كذلك حتى تزوج — وقد تزوج في الثالثة عشرة من
عمره على عادة أهل الهند جميعاً من الزواج الباكر — فكان
يخجله أن يرى زوجته الصغيرة أقدر منه على مواجهة الظلام .
ونحن ننصف الرجل من تواضعه إنصافاً للحقيقة فيما
نراه . فقد يُسمى ما وصفه جباناً ، إذا كان الرجل قد عُرف في
جميع أيام حياته بحادث واحد يشق عن خوف من المخاطر
المادية أو ماهو أرهب منها وأهول على الضمير : وهو المخاطر
النفسية . وليس من المعقول أن يؤدي الإحساس بالجبن إلى
انقلاب في طبيعة الإنسان يجعله من أشجع الناس وأقدرهم
على مواجهة الخطوب التي يتقيا أشجع الشجعان . وإنما
نسمى « الجبن » هذا بوصف آخر هو الوصف الذي اشتهر به
الرجل طول حياته : وهو ملكة التصديق والإيمان . فلا فرق
عند صبي مطبوع على ملكة التصديق والإيمان بين شيء
يصدقه وشيء يمس به ويراها . وقد كان حديث المردة والشاطر
والشعابين حديثاً مشاعاً بين أطفال الهند يسمعونهم كلما أصغوا

إلى أقاصيص العجائز في بيوتهم ، فكان يؤمن بوجودهم حيث
توهمهم كأنه يلبسهم ويراهم . ونحن لا نصف بالجهن إنساناً
يتقى مكان اللصوص وجحور الحيات في الظلام . ولكتنا
نصفه بالحيلة الواجبة على الرجل العاقل ، ونلومه إذا استطاع
أن يقهر المخاوف فأحجم عن قهرها ، ولكتنا لا نطلب منه
أن يتصدى لقهرها في ليله ونهاره بغير داع يدعو إلى منافاتها ،
وهو قادر على اجتنابها .

إلا أن اعتقاد غاندي الجهن في نفسه خطأ له شأن يذكر
في تاريخ نشأته ، لأنه دفع به إلى تجارب نفسية كان لها أثر بليغ
في تكوين خلقه واعتقاده .

ففي صباه كان صبيان الهند جميعاً يهتمون أنفسهم بالجهن
ويحسون بالنقص كلما عقدوا المقارنة بينهم وبين شبان
الإنجليز ، وكانت تسرى بينهم أبيات من الشعر نظموها
بالإنجليزية نترجها في هذه الآيات :

أنظر إلى ابن إنجلترا منتصباً مظفراً
يسطو على الهندي والسنهني يشكو القصر
لأكله اللحوم طال واستطال وازدرى
ووفر في أنفسهم أنهم يكسبون الشجاعة وقوة الخلق
إذا نبذوا معيشتهم ، وأكلوا وشربوا رددخوا وقصفوا ولعبوا
كما يفعل الشبان الإنجليز .

ووسوس بهذا إلى غاندى زميل من زملاء المدرسة ،
فسرق غاندى دريهمات من خادمه ليصبح بطلا تعز به الهند
فى وجه الدولة البريطانية ... وأكل اللحم المحرم ، وهمّ باستباحة
غيره من المحرمات . وجرّأته السرقة الأولى على سرقة أخرى ،
فعاد إلى السرقة فى المرة الثانية لأنه رأى دائماً يلح على قريبه
فى طلب دين عليه ، فاختمس من يد ذلك القريب قطعة ذهبية
ليؤدى عنه دينه الذى يمتل به غريمه .

وعز على غاندى وصاحبه أن يخلتسا القوة هكذا ،
وألّا يحسّر أحدهما على مكاشفة أهله بما يفعل . فساورها
الأسف وحز فى نفسيهما الكبت والروغان ، وفكرا فى
الانتحار ، واشترى السم فعلا وأكل منه ، ولكن دون
المقدار الذى يميت .

وخيل إلى غاندى فترة من الزمن أنه ينكر كل عقيدة
ويلحد فى الله . إلا أنها كلها محنة عارضة لامفر منها لقديس
صغير . فإن القديس الصغير لا يولد وهو قديس كبير ،
فغشيته الصدمة الأولى كما لا بد أن تغشاه ، وكانت غاشية
غريبة عن طبيعته ومزاجه وتربيته ، فلم يلبث طويلا حتى تاب
إلى إيمانه وتقاليده قومه . فاجتنب اللحم وعافه حتى بات يتقزز
من رؤيته ويفزع من الحلم بمنظره ، وكان بره بوالديه —

ولاسيما والدته ، من أكبر أسباب توبته ورجوعه إلى سالف
اعتقاده ، لأنه أشفق أن يعلى باستباحته أكل اللحم ، وهي
قطاعة عندهم كفظاعة أكل الخنزير عند المسلم ، وأتق أن
يكذب عليهما ويلقاهما بالرياء والخداع ، ولم يكن من طبعه
نهما ولا مسترسلا مع الإباحة والإنكار . فعاد بعد هذه
الغاشية إلى إيمان أنت من إيمان الصغرة وأقوى .

وتزوج غاندى ، كما تقدم ، على عادة قومه وهو في الصبا
الباك ، فخطبت له الصبية ، كسترباى ، من عشيرته وهو في
الثامنة ، وبني بها وهو في الثالثة عشرة ، ولم يبلغ العشرين حتى
صار أباً لأربعة أطفال ، أكبرهم ، هيرالال ، الذى مات
بعد مقتله بوضعة أشهر ، وكانت وراثته ، الخاندية ، ثلثاً دينياً
خامره منذ صباه . فلم تعجبه الحقيقة ولا البرهمية ، وابتحل
الإسلام والمسيحية ، واعتزل أهله منذ فلول نحلة الأسرة
إلى أن مات (يونيو ١٩٤٨) .

ولا يذكر غاندى بالرضى زواجه في هذه السن الباكرة .
فكتب في ترجمة حياته أن أهله أصرّوا على تزويجه ، وتزوج
أخيه ، وأحد أبناء أعمامه في يوم واحد ، ولم يتطروا إلى
مصالحتنا ولا عنوا بسؤالنا ، كأنما كل ما في الأمر أنهم
راضون وأنهم قادرون على تكاليف الزفاف ، وليس الزواج

عند الهندوكيين بالأمر الهين . فقد يجر الخراب على أسرتين ، وفيه ما فيه من تضييع المال والوقت وقضاء أشهر في إعداد الملابس والحلى وأدوات الزينة وإقامة المآدب ، ومباراة كل من الأسرتين للأخرى في النفقة ، لتبذرها في السرف ومظاهر الوجاهة . .

وأصاب غاندى فى امتعاضه من هذه العادة التى لاخير فيها ، لأن نفقات هذا الزفاف الضخم قد نالت من ثروة أبيه وهى ليست بالثروة الطائلة . فقد كان الرجل أعف من أن يستخدم منصبه لابتزاز المال . ولعل امتعاض غاندى من تزويجه فى هذه السن على غير موافقة منه قد ظل عالقاً بنفسه إلى أن تولى زعامة قومه ، فألقى على هذه العادة أشد إنحاء ، واستهدف من جراء ذلك لغضب الكثيرين من المحافظين . ويمكن أن يقال إن الصبي القديس كان يقبل على الشيء أو ينفر منه بمقدار نصيبه من اختياره . فنفر فى صباه من المسيحية لأن المبشرين بها كانوا يفرضون بشارتها قرصاً على الصغار والكبار ، ونفر من الألعاب الرياضية لأنها كانت مادة إجبارية ، فى المدرسة ، وكان إصغاؤه إلى أحاديث المسلمين عن دينهم أبسر وأسمح لأنهم كانوا لا يجمعونها على مستمعها .

أما تعليم الصبي فقد اتبع فيه أهله ما يتبع في تعليم الأطفال من أبناء أمثالهم . وكان أبوه في راجكوت حين بلغ موهانداس الصغير سن السابعة أو سن الدراسة الابتدائية ، فألحقه بمدرستها ، وانتظم في المدرسة الثانوية وهو في الثانية عشرة ، وقال عن نفسه أنه كان في طفولته فيج الذاكرة فلم يحفظ جدول الضرب إلا بشق الأنفس ، ولم يكن من التلاميذ اللامعين ، ولكنه كان يقبل على دروسه ولا يتوانى في استذكارها .

ولم يتعلم في المدرسة كثيراً من الدروس الدينية ، ولكنه كان يتلقاها في البيت والمعبد ويعي منها كل ما يلقى إليه . ومات أبوه وهو في السابعة عشرة من عمره ، فسكفه أخوه الأكبر ، وكان أيضاً أخاً جديراً بقديس ... فإنه توسم النجاسة في أخيه الصغير ففسد أثره ورشح هذا الأخ الصغير للقيام على رئاسة الأسرة ، والترقى إلى مركز في الوزارات الإقليمية كمركز أيه ، ولا يهيوه لهذا المركز في عصره إلا تعليم كتعليم الجامعات في الهند والاقطار الأجنبية . فأشار على كبراء الأسرة بإعداد موهانداس لهذا التعليم .

وكان أمامه جامعتان : إحداهما جامعة باننجار والأخرى جامعة بومباي ، وهي أكبر نفقة مما يطيق . فاختار كلية

ساملداس في الجامعة الأولى . وقال إنه غرق في علومها فنقل إلى بيته بعد نهاية السنة الأولى ، فنصح به برهمي صديق للأسرة بالسفر إلى البلاد الانجليزية لدرس القانون ، ومال هو إلى الطب . . . فذكره أخوه أن أباهما كان يمقت تشريح الجثث ، وأن وظيفة الطبيب لا ترشحه لولاية الوزارة ، فجنح إلى الدراسة القانونية إكراماً لذكرى أبيه .

وهنا قامت في وجهه العقبة الكبرى ، لأن إيغال في مثله فيما وراء البحار مستنكر في شريعة الجينيين ، ولم يكن في الهند كلها سيدة أشد تحرجاً من مخالفة عقيدتها من السيدة « بوتلباي » ، والددة غاندي . فضلاً عن تخرج أهله وسائر أقربائه . إلا أن غاندي الذي شب من صباه وديعاً مطواعاً قد شب كذلك قوى العزيمة لا يثنى عن رأى عقد النية عليه . فلم تنفع حيلة من حيل آله في إقناعه . واستطاع كاهن الأسرة أن يجد للأمر مخرجاً يرضى الأم ويرضى فتاها . فقال لهم : إن النذر باجتناب المحرمات في بلاد الغرب كافٍ إذا وثقت الأسرة من رعاية الفتى لنذره . وكانت الأم تعرف وليدها وتطمئن إلى صدقه في وعده . فأقسم بين أيديهم لا يقاربن امرأة ولا يذوقن خمرأ ولا يأكلن لحماً أو طعاماً محرماً . . . ومع هذا لم يسلم الفتى من غضب المتشددين من كهان عشيرته ، فاستدعاه رئيسهم

في بومباي وهو يهيم بركوب الباخرة إلى البلاد الانجليزية ،
ونبهه إلى الخطر على عقيدته من معاشرة الأوربيين في بيوتهم
لأنهم يشربون الخمر ، ويأكلون اللحوم ، ولا يتورعون عن
مقاربة النساء . فلم يحفل غاندى بتنبهه ، وأصر على السفر
في حينه ، فأعلن الكاهن عقوقه وحظر على أبناء العشيرة أن
يذهبوا لتوديعه .

ويمتنح مهاتما المستقبل في هذه الرحلة بالفتنة الكبرى .
فالنزعة المادية طاغية ، والإباحة الخلقية فاشية ، وفلسفة
العصر في أواخر القرن التاسع عشر — بين الجيل الجديد
خاصة — أن اللوم حق له بل فريضة عليه . وقد أوشك غاندى
أن يطلب هذا الحق ويدين بهذه الفريضة ، فتدرب على الرقص
وتعلم العزف على بعض الآلات الموسيقية ، وصحب رفاقه إلى
السهرات وراض نفسه على أدب المغازلة . ثم أحس أنه يتكلف
ولا يخف بطبعه إلى استجابة هذه الفتنة . وشاء المصادفة أن
تقترن فلسفة العصر بفلسفة أخرى في البيئات التي تعنيه ،
وتستحوذ على هواه . إذ كانت نهاية القرن التاسع عشر أيضاً
فترة الاستشراق ، والتوفر على دراسة أطوار الشرق القديم
والشرق الحديث : فكثر بين علماء الغرب من يدرس اللغة
الهندية ، ومأثورات البرهمية والبوذية ، إما استجابة لدواعي

الاستعمار، أو استجابة لنوازع الروح وامتعضاً من غواية المادة
ولجاجة الإلحاد التي أفسدت على بعض العقول معنى الحياة .
وكانت هذه الشواغل القليلة أقرب إلى سليقة غاندى وأقن
منه بالتلبية والإصغاء ، فاتصل بالأندية الصوفية ، واطلع
فى اللغة الانجليزية على آداب قومه التى فاته أن يطلع عليها
فى اللغة السنسكريتية ، وعاد من طريق أوربة الحديثة إلى تاريخ
وطنه القديم .

ونال إجازة الحقوق بعد ثلاث سنوات ، فرجع إلى وطنه
وهو أطيب ما يكون قلباً بلقاء أمه ووفاء نذره ، ولكنه سمع
— أول ما سمع — بنعى تلك الأم التى ماتت فى غيبته ، وكنمو
نبأ موتها عنه اشفاقاً عليه من صدمته وسوء وقعه فى طمأنينة
نفسه وانتظام دراسته ، فاستفاد يقينه من هذه الصدمة المفاجئة
فائدة لم يطلبها ولم تقع فى حسابه ، لأن وفاءه لذكرها قد ضاعف
حفاظه على نذرها ، واجتمعت الامومتان : أمومة الجسد ،
وأمومة الوطن ، فى أمومة واحدة ، وهى أمومة العقيدة
الروحية .

وزاول غاندى صناعة المحاماة زهاء سنتين فى وطنه ،
فكانت أول تجربة له فيها إخفاقاً تاماً لأنه حصر عن الكلام ،
ولم ينجح فيها بعد تكرار التجربة ولا رضى عن عمله فى هذه



obeykandi.com

الصناعة . لأنه أخذ نفسه بالصدق في قبول دعاواه ، وأنف من اقتناص أصحاب القضايا بالحيلة ومعونة السباسة . فما هو إلا أن دُعي إلى أفريقية الجنوبية حتى يادر إلى قبول الدعوة ووصل إلى برينوريا في سنة ١٨٩٣ وهو لا يعلم بما يضعه له الغيب في هذه الرحلة المفاجئة . فقد كانت مفرق الطريق في حياته وفي حياة بلاده على الإجمال .

سافر غاندى إلى أفريقية الجنوبية بدعوة من بعض الشركات الإسلامية التي كانت تتجر على شواطئ المحيط الهندي من أقصاه إلى أقصاه ، ولم يدع للسمامة ، بل لمساعدة المحامين السكار من الانجليز . لأن المحامي الانجليزى هو الوكيل القضائى الذى يسمع له صوت فى محاكم أفريقية الجنوبية . ولسكنه ذهب فى الواقع إلى تلك البلاد لأمر آخر مطوى عنه وعن موكله فى عالم الغيب المجهول .

ذهب ليتلقى رسالته فى حياته .

فلقى رسالته ، وعرف قضيته ، ووضع قدمه على فاتحة الطريق التى انتهت به إلى زعامة الهند كلها ، بعد جهاد طويل دام نحو عشرين سنة ، ووضع هناك (سنة ١٩٠٨) دستور الهند فى جهادها السياسى والأخلاقى فكان هو الدستور الذى قاد به الهند إلى استقلالها .

في أفريقية الجنوبية ضُرب غاندى وأُهين لأنه اجتراً على
النزول في الفئادق الأوربية والركوب في السكك الحديدية مع
الأوربيين ، وكاد أن يحرق حياً في النزل الذى أوى إليه بعد
العودة من زيارة قضاها في بلاده ، لأن ، البيض ، قد حسبوا
أنه مهد السيل في هذه الزيارة لإغراق أفريقية الجنوبية
بالعمال الملونين .

وهناك عرف القوانين التى كانت تفرض الحيف فرضاً
على الآسيويين والأفريقيين من الشعوب التى يسمونها بالشعوب
الملوثة ، ولا سيما طوائف الزراعة والصناع .

وهناك ألغى أعماله كلها ليعيش عيشة الفاقة والضعف مع
أولئك البائسين ، ويشاطرهم الظلم الذى يخضعون له ويريد أن
ينقذهم منه . فأنشأ لهم مزرعة يعملون فيها كما يعمل ويعيشون
فيها عيشة الكفاف ، ليحطموا قوانين الحكومة الظالمة بالصبر
والمقاومة السلبية ، وسماها مزرعة تولستوى .

ونزل الفتى النظرى الروحاني في معركته السياسية الأولى
إلى ميدان كله عمل ومادة . لأنه عالم السلاح والمال . ولكنه -
عند النظر إلى الوسائل والنتائج - قد كان في ميدانه هذا عملياً
أنجح من العمليين ، وقد بُلى منه العمليون بنخصم جديد لم
يعهدوا مثله قط فيما عهدوه .



عائدي في أفريقيا الجنوبية

obeykandi.com

لقد عهدوا من معارضتهم حملات الصحافة ، ولم يعمل غاندى هذه الحملات لأنه تولى تحرير صحيفة سماها (الرأى الهندى) تصدر بالانجليزية وثلاث لغات هندية ، ولكنها لم تكن قصاراه من الكفاح .

ولقد عهدوا من معارضتهم حملات المنابر ، ولم يعمل غاندى هذه الحملات ، لأنه كان يخطب ويقنع ، ويخاطب المتعلم والجاهل بما يفهمان . ولكنها كذلك لم تكن قصاراه من الكفاح .

إنما السلاح الجديد الذى جأهم به هو سلاح لم يخافوه قط ولم يحسبوا يوما أنه يخيف لو أنهم عرفوه . وذاك هو سلاح المقاومة فى غير عنف ، أو سلاح المقاومة السلبية كما عرفه ولاية الأمر فى حكومات الجنوب .

كان بعض الهنود ينقادون لغاندى فى حملات المقاومة السلبية ، لأنهم يؤمنون مثله باجتناب العنف والتورع من إزهاق كل حياة .

لكن عمال الجنوب فيهم صينيون وأندونسيون ، وفيهم هنود غير مؤمنين بالنحلة التى يؤمن بها الزعيم ، وفيهم زنوج ووثنيون لا يعرفون من الأديان غير أديان الهمجية الأولى .

وكانوا مع ذلك يطيعونه جميعاً ويعملون بما أرادهم عليه .
لأنهم مطمئنون إلى إخلاصه الذي لا تشوبه شائبة ولا ترتقي
إليه مظنة .

هذا الإخلاص التزيه هو العنصر الذي جهله ولالة الأمر
واستخفوا بالمقاومة السلبية لجهلهم بفعله في هذه الحركة ، وفي
كل حركة سياسية .

فلما التقاهم به الفتى القديس وجدوا منه ما لم يجدوه من قبل
في خصومات الساسة ، ومشاغبات الدعاة .

ترك غاندى كل عمل يربح منه مال ، ووقف ما عنده من
المال على معونة المعوزين من المظلومين ، وسكن من حيث كانوا
يسكنون ، وأكل مما كانوا يأكلون ، ونزل بالسجن مرات
حيث ينزلون ، وهجر الحضارة وزينتها في الملابس والشارية ،
وعرض نفسه لكل مهانة يتعرض لها أضعف الضعفاء
وأفقر الفقراء .

فأغضوا العيون ، وفتحوا البصائر ، واتبعوه .

وهكذا يصنع الاتباع مع كل متبوع لو وجدوه ،
ولسكنهم لا يجدونه واحداً فرداً بين عشرات ومئات .

وأوصاهم إذا كفوا عن أعمالهم أن يكفوا عن إكراه
من يعمل على ترك عمله ، وأن يكفوا عن مقاومة الجند الذين

يسوقونهم سوقاً إلى المصانع والمزارع . لأن الجند لن يحركوا
أيدي العمال بالقوس والآلات إذا شاءوا أن يذبذوها
ولا يحركوها . أما إذا ضربهم الجند أو جرحوهم أو قتلوهم
فليصبروا وليصبروا ، وليطيلوا الصبر بغير سأم . . . إن
المعنى خلق أن يسأم عدوانه قبل أن يسأموا الصبر على
ذلك العدوان . وقد جعلهم يتحدّون أوامر الحظر في الأماكن
المنوعة فذهبوا إليها بالآلوف وحبروا الحسكومات والمحاكم .
لأنهم لا يبالون السجن ولا تنسع السجون كلها لهذا العدد
الكثير من السجناء .

وكان يجمع من المال ما دسعه أن يجمع تموين العمال
المضربين ، ويمضى في تنظيم المزارع النموذجية ليستخرج لهم
منها بعض القوت السكاف ، وهو أكثرهم في العمل وأقلهم
في نصيبه من الغذاء . وليست وسائله هذه بالوسائل التي تفي
في انتظام معيشة يعتمد عليها الآلوف من العمال المضربين
إلى أجل طويل . واسكنها كافية لتعجيز المصانع والشركات
عن الانتظام . أو تعجيزها عن مقاومة الاضراب . وذلك
هو المقصود .

وطال صبر الفتى القديس عشرين سنة ، ولم يطل صبر
المصانع والشركات ، ولا صبر الجند وولاية الأمور . فانتصر

وانكسروا، وأفلحت هذه المقاومة العجيبة في تحطيم سلاح القوة وتحطيم سلاح القانون . واضطرت حكومات الجنوب إلى نسخ كثير من القوانين التي تحجر على حرية العمال الملونين في الإقامة ، أو تفقر عليهم في الأجور ، أو تسومهم الطاعة لما لا يطاق من الغبن والاحجاف .

وكأنما كان غاندى يحس في أيام أفريقية الجنوبية أنه قد نوى الصمود على جهاد لا تجدى فيه أنصاف القوى . فلا غنى له عن عدته الروحية الكاملة . أو لا عدة له على الإطلاق .

ففي أفريقية الجنوبية — وهو بناهر السادسة والثلاثين — نذر النسك والتبتل ، أو نذر ما يسميه الهنود « بالبرهماشاريا » أى الإعراض عن الجسد والسلوك إلى الله ، واتفق وزوجه على هذا النذر . فأصبح يدعوها بعد ذلك « با » أو يا أماه . وللروح — إن صح التعبير — عضلاتها كما للجسم عضلاته . وللصراع فى إبرام تلك العضلات أثر كآثره فى إبرام هذه العضلات . فلما عاد غاندى إلى الهند بعد صراعه الطويل فى أفريقية الجنوبية ، عاد بروح قد عرف كيف يلوى الحديد .

عاد إلى الهند بعد نيف وعشرين سنة (١٩١٥) فإذا بسمعه تسيقه إلى كل بقعة من بقاعها : سمعة القديس بل سمعة

المخلص الموعود أو « الأفاتارا » Avatara الذى تنتظره الهند
أبدأ فى أزمة الضيق والامل .

وكان أمل الهند فى الخلاص قد تجدد فى أوائل القرن
العشرين . لأن أبناءها الذين خيل إليهم زمناً أن الاستعباد ضربة
لازب عليهم وعلى أمثالهم من الآسيويين ، قد أفاقوا يوماً فإذا
بدولة أسيوية لا تبلغ عدتها خمس عدتهم قد سخرت الجيوش
والأساطيل على أحدث نظام ، فقهرت بها دولة من أكبر الدول
شهرة بالقوة والبأس بين الهنود والآسيويين على التعميم .
كانت غلبة اليابان على روسيا مبعث رجاء جديد فى جميع
الاقطار الآسيوية التى منيت بيلاء الاستعمار . وجاءت الحرب
العالمية الأولى بعد ذلك بأقل من عشر سنوات ، فكشفت
لأبناء الهند عن حاجة الدولة الآورية الأولى — الدولة التى
تسيطر عليهم — إلى معونة منهم لمقاومة خصومها أو لإنقاذ كيانتها .
فعلّموا أن رضاهم شىء يؤبه له . أو شىء له ثمن يؤديه
القوى المسيطر عليهم ، وهو راض أو كاره .

وفى هذه الآونة عاد غاندى إلى بلاده . فلا جرم يحسبونه
قد هبط عليهم من السماء فى ساعة الضيق وساعة الرجاء .

ولم ينغمس غاندى بآدى الأمر فى لجنة السياسة الهندية
التي كانت تضطرب بالخصومات الحزبية والطائفية فى تلك

الآونة . لعله أخذ في ذلك بوصية الزعيم جو كهيل Gokhale
الذى نصح له بمراقبة الحالة سنة كاملة ريثما يستجمع فكره
على رأى يستخلصه من تجاربه ومشاهداته : أو لعله آثر
إصلاح الأخلاق وتقويم المجتمع ومساعدة العمال
، طريقته التى جرى عليها فى أفريقية الجنوبية .
ساف العمال والزراع بالحسنى أو بالمقاومة السلبية ،
فى الريف ويتنقل على قدميه من قرية إلى قرية
ن الطبقة الفقيرة فى القرى بما استطاع . وبدأ
بلاات القصيرة فى مقاطعة الآلة الحديثة كلها
طعها ، فلم يركب السيارة ، ولا القطار ، إلا حيث
ألزم للرحلة من المسير على الأقدام .

ولم يلبث أن طارت شهرته بالقداية ، بل بالكرامة
والخارقة المعجزة . فأخذ الناس من ثم يروون عنه الخوارق
التى كان هو أول المكذبين لها ، ومن تلك الآونة تعود
القديس أن يرى فى طريقه أمهات يلبسنه بأطفالهن الصغار
طلباً للبركة والهداية ، وعجائزٌ ضريرات يعز عليهن أن يعبر
طريقهن دون أن يعرج عليهن ، فيترصدن فى مجاز السيارة
ليلبسنها ولو على خطر الموت ، إن فاتهن أن يسعدن بمصافحة
القديس العابر فى الطريق . وتعاضمت هذه الشهرة فى الامتفاضنة

والرسوخ ، حتى جاء يوم من الأيام ، بعد فترة من الزمن ، آمن فيه عامة أهل الهند بأن الزلزال الذي أصاب ديهوار ، إنما كان عقوبة إلهية أرسلها الله على القوم لأنهم لم يستمعوا إلى عظات غاندى في معاملة المتبوعين .

ولم يكن هذا إيمان العامة وحدهم ، بل كان من راجات الهند وخاصتها من يرفع صورة غاندى في قصره تيمناً بقداسته ، وإن خرج بذلك على مقتضى التقية في ممالك الأمراء والعظماء .

كانت هذه الشهرة المقدسة تتجمع حول غاندى يوم جذبه السياسة إليها جذباً على غير اختياره .

وكان أهل الهند يومئذ في سياستهم الوطنية على مذاهب شتى : فريق يحنح إلى الثورة المدعوية ، وفريق يحنح إلى التعاون مع الإنجليز تمهيداً لبلوغ المزيد من الحقوق الدستورية ، أو حقوق الحكومة الذاتية ، وفريق يحنح إلى عدم التعاون استعجالاً لبلوغ هذه الغاية .

وليس في هذه الأحزاب كلها حزب يحجم عن عمل من أعمال العنف ، أو أعمال الغيلة والقتل ، إذا أخرجته الضرورة إليه .

وكان على زعامتهم جميعاً في أوائل القرن العشرين وجل

من أعظم نوايغ الهند في الزمن الحديث ، وهو « لوكمانيا بال
جانجدار طيلاق » .

ولقد كان طيلاق عالماً واسع المعرفة بالعلوم الرياضية
والثقافة الهندية والغربية ، قويم الخلق ، عالي النفس ، قوى
الشكيمة ، صعب المراس ، يقول فيه غاندى : إنه لو ظهر في
الزمن القديم لكان من مؤسسى الدول والعروش .
وأكبر الظن أنه لو عاش طيلاق ، وطال به العمر ، وقعت
وة بينه وبين غاندى فى برنامج السياسة الوطنية ، لأنهما
مرجان متباينان . ولكنه قضى زمناً فى السجن ثم قضى نحبه
سنة ١٩٢٠ ، قبل أن تنعقد الزعامة الإجماعية لغاندى .
مدى الحياة على الوفاق .

° ° °

وكأنما كانت الهند تروى مكان الزعامة منها حتى وجدت
زعامتها التى تلائمها ، بعد هذا التمهيد من تطور غاندى وتطور
الحياة الشعبية فى بلاده . فلما تولى غاندى زعامتها تولاها زعامة
هندية وروحانية توائم الهند كل المواءمة ، وتصلح لها حيث
لا تصلح الزعامات على منهاج الشعوب الأروبية .

ويبدو لنا أن صفات غاندى كلها قد رشحت هذه الزعامة
الروحانية ، حتى عيوبه الظاهرة . فإن القيامة والضالة

والانكسار نقص في الزعيم ، ولسكنها في الداعية الروحاني
كإل أو توفيق حسن بين دعوته ومرآه . وقد اقترنت صفاته
جميعاً بالإخلاص الذي يعلو على الشبهات ، فكانت شهادة
له عند الخصوم كما كانت شهادة له عند الأصدقاء .

قلنا حين كتبنا عنه قبل نيف وعشرين سنة (١) : ولم يظهر
بعد طيلاق الزعيم الهندي الذي مات في الأعوام الأخيرة
زعيم كان أجمل خطراً وأبعد صيناً ، وأكثر أتباعاً من غاندي .
هذا الذي لقبه قومه بالنبي أو القديس . وقد اعتاد غاندي أن
يقول عن سلفه الراحل : أنه لو ظهر في القرون الغابرة لانشأ له
دولة وعرشاً ، وهو إنما قال فيه هذا القول لما عرفه من شدة
مراس طيلاق وقوة شكيمته وبعد أمله واعتداده بنفسه وبروز
شخصيته . ولا نظنه إلا كان شاعراً بالتفاوت بينه وبين صاحبه
في هذه الخصال حين التفت إليها ونوء بها أكثر من مرة ،
فإن الاختلاف في الخلق من هذه الناحية هو أوضح مواضع
التباين بين الرجلين : صاحب العرش الذي تأخر به الزمن عن
عرشه ، والنبي الذي لم يتأخر به الزمن عن شرف النبوة !
• واتعهد بالأغلب الأعم من أبطال النهضة ، وقادة
الحركات الاجتماعية والسياسية أن يكونوا صعب الطباع

(١) ٦٧ سبتمبر سنة ١٩٢٢ .

ضخام الأنانية ، أولى طمع وكبرياء ، وأنهم إلى أخلاق الغزاة
الفاحين أقرب منهم إلى أخلاق الأنبياء والنسك . ولو قدر
للهند ألا يتولى الزعامة فيها أحد من غير ذلك الطراز الذى نبغ
منه طلاق لما سمعنا باسم غاندى قط ، ولما كان له دور يؤبه له
فى رواية الهند الحديثة ... نعم فليس غاندى بذلك الرجل الجبار
بشخصيته ، الغلاب بحيلته ، ولا هو بالمزاول المداور ، القوى
العارضة ، الخلاب الفصاحة ، ولا هو بالرجل الذى تروعك
هيئته ، وتستحوذ على إعجابك هيئته . لا بل خلاف ذلك يراه
واصفوه من أتباعه وغير أتباعه : يقولون إنهم يبصرونه فى
ضواه ، ونحافة جسمه ، ورخامة صوته ، ووداعة نظراته ،
فكأنما يبصرون طفلاً صغيراً لا بطلا مسموعاً يقود الملايين
وينهض لنهاوة أكبر دولة فى الأرض . وقد رأيت له عدة
صور مطابقة لهذا الوصف ، وقرأت أخباره مع حكومة
الهند ، وأساليبه الغربية فى مصاولتها ، فلم أشك فى أن رؤساء
الحكومة هناك كانت تمر بهم لحظات لا يتماثلون فيها من
الابتسام لهذا القدر الذى امتحنهم بكفاح هذا النبى السياسى ،
فأصبحوا أمام حملاته التى كان يصيبها عليهم صبا لا يدرون فى
أى باب يسلكونها : أفى باب اللد فى الخصومة ، أم فى
باب عناد الطفولة الطاهرة البريئة ؟ ولا يكادون يعلمون هل

يُجد هذا الخصم العنيد ، أو هو يداعب حكومة الهند برمة
ثم هو تتركها وشأنها حين يلهمه هواه .

وإلى هذا الحد يتصور الفكر غاندى غير مطبوع على إثارة
البغضاء ، وهى خصلة أفادته أجل فائدة فى مهمته التى قبضته
الظروف لها ، وما كانت لتقيض لها رجلا هو أخلق بها منه . . .
إنها كانت مهمة صاحبها فى غنى عما يتصف به الزعماء الجبارة
من خلق غضوب يستنفرون به فى جانبهم وجانب خصومهم
أقصى ما عند الفريقين من نكرة الجنسية وعداوة العصية .
فهى مهمة جهاد سلمى ، سلاحها الرفق والصبر ، وأصلح الناس
لقيادتها ذلك الرجل المسلم بطبعه ، الوديع بحكم تكويته ، الذى
يحذر أتباعه أشد الحذر من مقارفة العدوان والعنف ويقول
لهم : إذا كان لابد من العدوان فكونوا أنتم ضحاياهم ولا تكونوا
أنتم جناة ، ويعظهم أن يعملوا بأنفسهم عن غضب السباع ،
وشراسة الحيوانات ، وهى كذلك مهمة تأليف بين عنصرين
فرقتهم تراث تاريخية كانت إلى عهد قريب تسيل السماء ، وتذكى
ضرام البغضاء ، وتبعث الأنفة والاعتزاز بالآباء ، فكما كان
القائم بها سهل العريكة ، بعيداً عن الكبرياء الشخصية ،
والخنزوانة الدينية ، كان ذلك أعون له على الإصلاح والتوفيق
ومسح التراث ولم الصفوف ، وهى مع هذا وذلك مهمة قناعة

وإعراض عن لذات المدنية وغواياتها . ومن لها غير غاندى المتواضع المتقشف ، القانع باليسير من الغذاء والرخيص من الكساء ؟ لو أنه كان من رجال المطامع ، وعشاق الدنيا المفتونين بجواهرها وزينتها ولذاتها وملاهيها — أترأه كان يخطر له أن يتخذ نفسه قدوة لاتباع دعوته ، فيغدو ويروح في ثياب من أرخص ما تنسج الهند ، أو يعيش على الفاكهة والأرز ق ؟ . لقد صار للدين ومكارم الأخلاق كل ما عمله ي ونطق به ، حتى الدعوة إلى نبد مظاهر المدنية الغربية . جد لها حجة من مكارم الأخلاق تحت عليها . فكان لجماعته : « إننى لأستحي أن أخاصم رجلا يمنّ علىّ ملابسى ، .. وما هو بهازل ولا متكلف فيما يقول . » ويخيل إلى أن ضمور الشخصية أفاد غاندى أكثر مما أضر بنفوذه ، وأكسبه من الأنصار أكثر ممن أبعد عنه . إذ كانت الشخصية الضامرة هى التى ساعدته على بلوغ تلك المنزلة الدينية الرفيعة ، التى مهدت له سبيل التمكن من أقوى جوانب النفس الهندية — وهو جانب الشعور الدينى — فانه ما زال من سمات النَّسَّاك والروحانيين بساطة المظهر وخشوع النفس والجسم والبعد عن صور السطوة والوجاهة الدنيوية . بذلك يتسم النَّسَّاك الصادقون ، وكذلك يترامى للناس النَّسَّاك

المتصنعون ، فصاحبنا غاندى فى بنيتة التحيلة ، وقده الصغير ،
أصدق عنوان للزهد والورع وأقرب صورة إلى الصلاح
والتقوى . ويمكن أن يقال على سبيل المجاز أن الطبيعة
تورعت فى تركيه فلم تعتمد إلى البذخ والروعة ، فكان الرجل
متقشفاً فى الحياة ، وكانت الحياة متقشفة فيه .

« وكثيراً ما رأينا الكبراء ، من ذوى الصاف والنفوذ
يقبلون الطاعة لأمثال غاندى ممن لا سلطان لهم فى ذواتهم ،
ولكنهم مظهر من مظاهر سلطان الله ، الذى لا يتعالى على
سلطانه عظيم ولا حقير : يقبلون الطاعة له ، ولا يقبلونها لمن
يتقدم إليهم بمزايا من جنس مزايهم . لأن الأول يترك لهم
الدينيا التى هى موضع تفاخرهم وتناحرهم ، ومثار التنافس
والحسد بينهم ، فيخرجونه من ميدان المنافسة ، ولا يرون فى
أنفسهم غضاظة من تقديمه عليهم جميعاً . والثانى يتقدم إليهم
بحظه من تلك المزايا لينافسوه أو ليستكبروه عن منافستهم :
فيسلمون له عند العجز مجبرين أو مختارين كمجبرين . وللضعيف
الهيئة فى بعض الأحيان أن يعتبط بضعفه الظاهر ، ويحمد
عواقبه . لأن الناس لا يكلفونه ما يكلفون القوى ولا يقيسون
أعماله بمقياس ذوى القدرة والخطر . . يستكثرون منه القليل
إذ يستقلون من غيره الكثير ، ويعجبون منه بما ليس بعجيبهم

من سواه . مثله في ذلك كمثل الطفل الصغير يرفع اللبنة فتسير بحديثه الأمثال ، وليس هذا ولا أضعافه بما يذكر للرجل الكبير .
..... إن غاندى كما رأينا بما تقدم صاحب زعامة

خاصة بموقفه ومهمته ، أى أنه لم يُخلق ليكون زعيماً على كل حال . ولا نقول ذلك بخساً لشهائى الرجل ولا تنقصاً من قدرته ، فإنه فضلاً عن فصاحته وسهولة اجتذابه للسامعين حاصل ، كما نعتقد ، على صفتين من ألزم صفات الزعامة على الناس ، بل هما ألزم صفاتها قاطبة ولولاها لما أفلح داع قط ، ولا استحق الكرامة زعيم ، وهاتان الصفتان هما : الإخلاص والإيمان .

، فإخلاص غاندى فوق كل شبهة ، وإيمان غاندى قد صفت المحن ومحضه النسك ، وتنزه عن الشكوك الهادمة والوساوس القائمة .. عرف له إخلاصه وإيمانه أبناء قومه فعظموه وأكرموه ورفعوه بينهم مكاناً لا مطمع فوقه لطامع . وما أدراك ما مكانه عندهم ؟ إنهم يلقبونه : النبى أو الروح العظيم (ماه - آتما) وهى منزلة ليس بعدها ولا أرفع منها فى دين البراهمة إلا منزلة واحدة ... هى الروح الكلية (بارام - آتما) وهى روح برهما : روح الله .

ولم يتفرد بتنزيه غاندى عن التهم أبناء وطنه من البراهمة

والمسلمين . فقد شهد بنزاهته كذلك كل من رآه من
الأوربيين ، حتى أنصار الاستعمار من الإنجليز ، بل شهد له
قاضي الذي أمضى الحكم بالسجن عليه ، ورأينا بين كتاب
الإنجليز من يقول في مجلة « نيشن » غير متعلم ولا محترس : إنه
ليس من التجديف أن يقارن بين غاندى والمسيح ، وهى كلمة
كبيرة من إنجليزى مسيحي فى العصر الحديث . ولم يستطع
السير فالتين شيروول أن يلقى عليه الغبار الأسود الذى
لا يعيبه إلقاؤه على مخلوق يناهض الاستعمار البريطانى ، فقال :
إنه فى الحركة الهندية « بلا فأس بشحذها لنفسه ، ... وهذه
الفأس عندهم هى كناية عن المصلحة الشخصية والأغراض
المريية . وكم من فأس خلقها شيروول وشحذها على حسابه
لأناس لا يحملون الفؤس ! » .

خلعت الزعامة لغاندى على هذا النحو الذى يعد أعجب
ما حدث من نوعه فى تاريخ الزعامات السياسية . لأنك
تستطيع أن تقول : إنه بلغ الزعامة بغير مجهود ، كما تستطيع
أن تقول : إنه بلغ الزعامة بأكبر مجهود يدخل فى طاقة إنسان .
فغاندى لم يزاحم أحداً على زعامة وطنه ، ولم يزاحمه أحد
عليها . فهى زعامة من ثم بغير مجهود .

ولكن غاندى قد استحق الزعامة باعتراف موافقيه فى
الخطوة ومخالفيه ، واعتراف المستعمرين أنفسهم ، لأنه انتصر
فى أصعب المعارك على المجاهدين : وهى معركة الشهوات
والمطامع ، وراض نفسه على ترك كل ما يصعب تركه واحتمال
كل ما يصعب احتماله ، فدانت له النفوس سهلة القياد بعد
أن دانت له نفسه حيث لاتدين النفوس ، وكانت أكبر
شهادة له بين أبناء وطنه من أكبرهم وأولاهم أن ينفس عليه ،
وهو الشاعور تاجور ، فقال عنه من كلام كثير : « إنه أعظم
شخصية إنسانية ، رآها » .

ولما خلاصت له زعامة وطنه على هذا النحو مضى بها على
سنته التى لا يحيد عنها ، وهى سنة الحب الشامل والاحتراس
من كل نزعة من نزعات الكراهية والعداء ، وإن أصابه شر
ما يصاب به المرء من أذى الكراهية والعداء .

ولا تخالجن أحداً ذرة من الشك فى صدق غاندى حين
يقول إنه يحارب الاستعمار ولا يكره المستعمرين . فهكذا كان
فى كل صغيرة وكبيرة من حركاته ودعواته منذ بدأ جهاده
فى أفريقية الجنوبية : كان يحارب الأوربيين والإنجليز
ولا يعاديهم ، وكان يرى لهم عليه حقوق الإنسانية كما يراها
لأبناء وطنه وللمظلومين من أبناء الشعوب الملونة . فجند فرقة



خاندی الرعم

obeykandi.com

للمصليب الأحمر في أيام حرب البوير ، وأنشأ مستشفى في جوهانسبرج لعلاج جميع المرضى بالطاعون حين فشا في جوانبها ، وهادن الحكومة في أوقات الحرج حتى جلب على نفسه سوء الظنة من أبناء وطنه أنفسهم ، فضر به (في سنة ١٩٠٧) : ضرباً مبرحاً ليقتلوه ، ولم يتركوه إلا وهم يحسبون أنه قد مات .

وهكذا كان يصنع في خصومة الحكومة الهندية على اختلاف موقفه منها . فكان يدعو أحياناً إلى التعاون وأحياناً إلى المقاطعة ، واشتد في حركة المقاطعة (سنة ١٩٢٠) حتى أمر أتباعه بالاستقالة من وظائف الحكومة ورد الرتب والألقاب الإنجليزية والإضراب عن أداء الضرائب ، وعن المساهمة في القروض الحكومية ، وحرّم عليهم كل سلعة أجنبية ، ونقض جميع القوانين التي تحتكر بها الحكومة سلعة من السلع ، وتجاوز هذه القوانين إلى غيرها إذا وجب تحدى جميع القوانين لشل حركة الحكومة .

ولكنه كان في كل هذه المواقف ، معاوناً أو مقاطعاً ، يوصي ويكرر الوصية باجتناب العنف واحتماله عن رضى وطواعية ، واستخدام السلاح الوحيد الذي كان يرى أنه سلاح النصر في حالتى النجاح والإخفاق ، وهو سلاح المحبة

والمسألة . وكان يقول لاتباعه : حاربوهم بالسلاح الذى يخافونه لا بالسلاح الذى تخافونه أنتم . وبينوا لهم أن سلاحهم لا يخيفكم فتفلّوا ذلك السلاح فى أيديهم . أما السلاح الذى كان غاندى يرى أنه يخيف المستعمرين فهو سلاح المحبة . لأنه سلاح جديد لم يتعودوه .

ومن اعتزازه بهذا السلاح أنه وصفه لهتلر . . نعم وصفه لهتلر كما يصنع أصحاب مصانع الأسلحة إذ يصقون مخترعاتهم الماسعية لمن يحتاجون إليها . فكتب إلى هتلر قبيل الحرب العالمية الثانية يقول له بعد مقدمة يذكر فيها ترده قبل الكتابة إليه : . . . وظهر جداً أنك اليوم الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يمنع حرباً قد تهبط ببنى الإنسان إلى درك الهمجية . فهل من اللازم أن تبذل هذا الثمن لأى غرض من الأغراض بالغاً ما بلغ من الرجاحة فى نظرك ؟ أترك تصفى إلى توسل رجل تعتمد عن روية طويلة أن يتجنب وسائل القتال فلم يفته نصيب غير قليل من النجاح ؟ غفرانك على أية حال إن كنت قد أخطأت فى الكتابة إليك . . .

وهذا الخطاب يدل على أساليبه السياسية ، كما يدل على اعتزازه بسلاحه . فإن غاندى صرح الإنجليز بوجوب الجلاء عن الهند بعد نشوب الحرب العالمية الثانية ، وقال إنه

لا ينبغي بذلك إغنائهم في وقت المحنة ، وإنما يعجل بالطلب
لأنه لا يرى ما يوجب تأخير الجلاء إلى ما بعد وقوف القتال
في الميادين الأوروبية أو الآسيوية ، ولسكنه مع هذا لم ينظر
إلى الحرب العالمية كأنها فرصة مواتية يترقبها لمصارحة الإنجليز
بطلب الجلاء ، وحاول بما في مقدوره أن يثنى عنها من يخشى
منهم الإقدام عليها .

وتهاج الخواطر ما تحتاج ، وتبيخ الدماء ما تبيخ ،
ورفضت زمام الحقوق والأعصاب من قبضة العبيد والدهماء
على السواء . وغاندى على عبده في صدق الخصومة سرّاً
وعلانية ، وفي صدق الإيمان بسلاحه وصدق النفور من كل
سلاح غيره . ولم يبيع قط لنفسه أو لأحد من أعوانه أن ينسى
المحبة في حركة واحدة يقابلون بها المعتدين عليهم ، أو ينسى
الصدق في كلمة واحدة يذكرونها عنهم . وأدهش البريطانيين
بشدة حرمته على معدته الحكمة الواحدة في حادث - حتى
الخصوص - كان أخلق الحوادث أن يخلق الألسنة بآلتهم
في غير تمحيص وإحجام ، وهو حادث امرتزار المشهور .

في الثالث عشر من شهر أبريل سنة ١٩١٩ ، وقعت أكبر
وصمة في تاريخ الاستعمار البريطاني للهند ، وهي مذبحه امرتزار
وكانت هذه المذبحه أضخم خطأ تجمعت فيه أخطاء الإدارة

والسلطة العسكرية ، في حساب السياسة ، وحساب المبادئ الإنسانية ، وحساب العرف والنظام .

كانت الهند كلها تشتعل بالسخط والغضب ، وكان الهندوسيون والمسلمون على السواء على أشد النقمة من إمة البريطانية ، لأنها أخلفت وعودها لهم ، وناصبت الإسلامية عداً صريحاً في تأييدها هجوم اليونان على الأناضول ، بعد أن حارب المسلمون في صفوفها ن على وعد قاطع منها ألا تمس الخلافة الإسلامية إمة الجيوش التركية .

خرج غاندى في رحلة سلمية يهدى أبناء وطنه ويجمع بين المسلمين على خطته في اجتناب العنف وإهراق الدماء . فقبضت عليه الحكومة وأعادته إلى بومباى . وسرى الخبر في أرجاء الهند ف وقعت بعض حوادث العدوان هنا وهناك وكانت « امرتزار » من المدن التى وقعت فيها هذه الحوادث ونهب فيها بعض الدور والدكاكين .

فوصل الجنرال « سير ميشل داير » إلى المدينة يسبقه إعلانٌ — لم يعلم به أحد — بمنع الاجتماعات ، وكان اليوم الثالث عشر من شهر إبريل موعد اجتماع دينى في ميدان محصور يسمى « جلنوالا باغ » فاعتقد الجنرال أن المجتمعين يتحدثونه

ويعصون أمره . فأمرهم مرة أخرى بالتفرق ، فلم يستطيعوا أن يتفرقوا على عجل لأن المكان محصور ، فأطلق عليهم مدافعه الرشاشة حتى فقدت ذخيرته . وقتل في هذا اليوم عدد عظيم من المجتمعين والمجتمعات يقدرهم بعضهم بأربعمائة ، ويبلغ به بعضهم أربعة أضعاف هذا العدد . ولم يكتف الجنرال بإهراق الدماء حتى أضاف إليه إذلال النفوس . فأمر ألا يعبر الهنود طرقاً معينة إلا زحفاً على الركب ، لأنها الطرق التي أهدن فيها بعض السيدات خلال الحوادث التي وقعت قبل وصوله إلى المدينة .

إن الجريمة أفضح من أن يلتزم فيها أقل حيلة في الاتهام . ولكن غاندى أبى - مع فظاعة الجريمة التي تغرى بكل تهمة - أن يثبت في محضر التحقيق حرفاً واحداً لا تقوم البينة القاطعة على ثبوته ، فلما اجتمعت لجنة التحقيق الوطنية لسكتابة تقريرها عن الحادث ، ووردت فيه بعض الأقوال التي يؤخذ منها أن الجنرال « دابر » تعمد أن يستدرج المجتمعين إلى الأماكن المغلقة التي ينالهم فيها الرصاص ، أصر على حذف هذه الأقوال لأنها في رأيه « لا تعقل » ولم يتم عليها من الأدلة ما ينفي الشبهة عنها . ثم أصر في مؤتمر « امرتزار » الذي عقد عند نهاية السنة على استصدار قرار من المؤتمر كله باستنكار أعمال

العنف التي وقعت من جمهرة الهنود في البنجاب والكوچرات
فصدر القرار على الرغم من معارضة كثير من أقوى الأعضاء
لاقتراح غاندى ، وعلى رأسهم داس ، ومؤيدوه .

ويشبه هذا الحادث في صدق الكلمة وأمانة العقيد
إعلانه وقف العصيان المدني على تبعته وحده بعد الهياج
الذى انفجر في المدن الهندية لمناسبة زيارة ولي العهد الإنجليزي
لمدينة بومباي (١٩٢١) .

ففي ذلك الوقت كان رؤساء المؤتمر جميعاً معتقلين أو
مسجونين ، وكان الطلقاء منهم على خطر من الاعتقال أو
السجن . وكان غاندى يتولى رئاسة صحيفة « الهند الفتاة » التي
كانت بمثابة صحيفة المؤتمر الرسمية . فقرر المؤتمر إسناد السلطة
التنفيذية إليه في خلال هذه المحنة ، واتفق الرأي على إعلان
العصيان المدني فحدث على أثر إعلانه أن الدهماء ثاروا في
« شوري شورا » وقتلوا في هذه الفتنة اثنين وعشرين من
رجال الشرطة . فلم ينتظر غاندى حتى يجمع المؤتمر ويعرض
عليه إعادة النظر في قراره ، بل أعلن باسمه وحده وقف حركة
العصيان المدني إلى أن يتها سواد الشعب لفهم هذه الحركة
وتنفيذها على وجهها المقصود : وهو المسالمة واجتناب كل
عمل فيه عدوان على أحد من الحاكمين أو المحكومين . واشتدت

الثورة عليه في المؤتمر من جراء هذا الإعلان الجريء ،
واقترح أحد الأعضاء توجيه اللوم إليه ، وناصره أعضاء
آخرون . ولكنه عند أخذ الرأي لم يظفر بكثرة
الأصوات .

ومن الجائز أن هذه المواقف المستغربة التي كان المهاتما
يقفها من قومه في أخرج الأوقات وأشدّها جماحا بالنفوس ،
كانت تمتحن قداسته في نظرهم أعسر امتحان تمر به زعامة
سياسية ، ولكنه كان هو الناجح أبداً في كل امتحان من هذا
القبيل ، وكان أبناء قومه يخرجون من كل محنة وقد انقلبت في
نظرهم إلى امتحان عسير لهم ، يمتحنهم في قدرتهم على مجازاة القداسة
وحاجتهم إلى رياضة النفس على طاعتها والالتزام بأمرها ،
فيخرج غاندى من كل محنة من هذه المحن وهو أعلى مكاناً
وأقدر على قيادة الخاصة والعامة في أوقات الفتنة والضيق .

أما الانجليز فقد كانت مخالفة غاندى لهم ومخالفته لزعات
قومه تواجههم معاً بظاهرة إنسانية عجيبة لا نظير لها في
حضارتهم الغربية : ظاهرة يعرفون منها ما يعرفون ويجهلون
منها ما يجهلون ، ويحيط بها كل ما يحيط بالمجهول من اهنية
والاستغراب ولكنه استغراب لم يخل قط من عطف وتقدير .
أكبره قومه ، وأكبره خصومه ، وكانت القوة الروحانية

التي استحققت هذا الإكبار هي الجيش الزاخر الذي يحارب
به في ميدانه ، ويختار ميدانه حيث شاء كما يشاء . لأنه لا ينهزم
في ميدان اختاره ولا يؤمن بأنه ينهزم ، ولا يبالي الهزيمة إذا
جاءت بوادرها بغير مايروم .

كان الانجليز يحارون في هذه القوة كيف يلقونها وكيف
يعالجونها ، إلا شيئاً واحداً لا يحارون فيه ، ولا يحار فيه غيرهم
وهو جدارتها بكل احترام .

وتجلى هذا الاحترام في تلك المحاكمة الفريدة التي لم يشهد
لها مثيل في تاريخ القضاء كله ، وهي محاكمة المهاتما ، المشهورة
التي بدأت في الثامن عشر من شهر مارس سنة ١٩٢٢ أمام
محكمة أحمد آباد .

دخل المتهم الهزيل إلى ساحة المحكمة ، فوقفت المحكمة
إجلالاً له حتى استوى في مكانه .

وسئل عن التهمة — وهي تعريض الحكومة للكراهية
وتصعيب مهمتها في حكم الهند — فأجاب بأنه « مذنب ، على
حسب القانون القائم . ثم وجه خطابه إلى القاضي « برومفيلد ،
قائلاً : « إنك لا معدى لك في مقامك هذا من أحد أمرين :
إما أن تعزل منصبك وتنفض يدك من السوء . وإما أن

تصدر حكمك بأقصى العقوبة إذا اعتقدت أن هذا النظام وهذا القانون الذى تطبقه فيهما الخير لأبناء هذه البلاد ، وأن عمل من ثم ضار بمصالحهم . .

فمضى القاضى فى تلخيص التهمة . وكان فى تلخيصه كأنما يستعطف المتهم ويعتذر للحكومة لأنها اضطرت إلى تقييد حريته وكفه عن الاسترسال فى دعوة تحول بين الحكومة — والحكومة — وبين القيام بعمل من الأعمال التى تتولاها الحكومات . ثم وجه الخطاب إلى « المتهم » فقال : « إنك رجل يرى فىك الناس ، حتى مخالفيك ، إنساناً من ذوى المثل العالية والحياة النيلة بل المقدسة » ، ثم نطق بالحكم فإذا هو يقضى عليه بالحبس البسيط ست سنوات . . وعقب على ذلك قائلاً : « إنه لن يكون أحد أسعد منه إذا استخدمت الحكومة حقها فقصرت هذه المدة أو أطلقت سبيله » . وعاد يسأل غاندى مهوئاً لوقع هذا الحكم : ألم يحكم بمثله من قبل على طلاق ١٥ . .

فكان مسلك القاضى فى القضية كلها مسلك من ينفذ الإدانة عن نفسه ، ويحاول أن يبرىء نفسه أمام العالم وأمام التاريخ من اتهام يخشى أن يقترن باسمه ، ولم يكن مسلك رجل يعاقب ويدين .

لم يكن غاندى « يمثل » ، فى إيدانه نفسه ، ولم يكن القاضى « يمثل » ، فى تبرئة نفسه ، ولسكنه كان يعتذر للقانون ويعتذر للسياسة فى حضرة قوة أكبر من القانون وأكبر من السياسة ، وهى القوة التى لا تجهل ولا يجهل لها أثر : وكان أثرها المحقق أنها قد غلبت قانون الحاكم الأجنبى كما غلبت جيوشه وأساطيله ، وانتصرت بالسلاح الذى اختاره صاحبها ، وقال غير مرة أنه يحارب به لأن السلاح الماضى هو السلاح الذى يخافه الخصم لا السلاح الذى يخافه حاملوه .

ولقد أسف أناس من فضلاء الهند ومن عباقرتها النابهين وفى طليعتهم تاجور ، لأن غاندى سخر هذه القوة الروحانية المثلّى فى خدمة السياسة . ولكن الذين عاشوا منهم بعده ، أو عاشوا إلى أخريات أيامه ، قد علموا أنه كان على صواب فيما صنع ، لأنه لم يفسد روحانيته ، بل نقل الروحانية إلى السياسة فأصلحها ، وجعلها فى نظر الأنصار والخصوم حرفة جدية بقديسين .

لقد كانت هذه القوة الخارقة عنصراً فعالاً فى تاريخ أربعمائة مليون من الآدميين ، وستظل عنصراً فعالاً فى تاريخ البشر جميعاً إلى زمن بعيد .

بهم نقيسها إذا أردنا أن نذرع آمادها ونذكر أغوارها
وآفاقها؟.

أبحاية البقرة أو عبادتها؟ أبالصيام إلى أجل أو بالصيام
حتى الموت؟ أبالتنكف والزهادة؟ أباجتنب مطلق لكل
ضرب من ضروب العنف بغير قيد ولا شرط، ومع جميع
الناس، وفي جميع الأحوال؟

كلا. إنما هذه كلها صور وعناوين، وإنما القوة الصحيحة
من وراء هذه الصور والعناوين، وكل قوة صحيحة في نفس
الإنسان فهي القوة التي تعدو به طوره المحدود، وتخرجه من
أثرته الضيقة وتقيمه إنساناً يعثر على صفات الساعة، ويدين
بالإنسانية الشاملة في عمرها الخالد المديد. وما العبرة في القياس
الأصيل إلا بهذه القوة الصحيحة، دون ما تقسمى به من الصور
والعناوين.

وليس هذا القياس بدعاً في القوى الروحانية وحدها.
فقد نجد له مثيلاً في القوة الجسدية وفي هذه الملموسات المادية
التي نحسبها مرجع الصحة والصدق والفهم العملي الذي لا تشوبه
المغالطة والخذاع.

فهل من مادية جسدية، أدخل في باب المادة والتجسد
من قدام الأبدان؟

إنه المادة من صميم المادة في عرف الواقعيين والمثاليين ،
والخياليين . ومع هذا نحن نحسه على نحو ، وننتفع به في
أجسادنا على نحو آخر .

نحن ننتفع بالغذاء لأنه فخم وجير وحديد وملح وفسفور
إلى غير ذلك من المعادن المحدودة إلى تدخل في بنية الأحياء .
فنن الذي يأكل طعامه لأنه فخم أو جير أو حديد أو ملح أو
فسفور ؟ إن الطبيعة لم تخدع الناس حين جعلتهم يأكلون
ويشربون ، لأنهم يطلبون طعاماً حلواً ، أو طعاماً حامضاً ، أو
طعاماً مراً ، أو طعاماً يجلب الشهية ويلذ في المذاق ؟

إن الطبيعة لم تخدعهم بهذه العناوين التي اتخذتها أذواقهم
ولم تدخلها في تحليل المعامل ، ولا أدخلتها في مناقشة الأفكار ،
ولا هي مثلت لهم الحاجة البدنية بمصطلحات الكيمياء ،
ولكنها ترجمت لهم نفع الغذاء بهذه الطعوم التي تسيغها
لأذواق ، ولولا هذه الطعوم لما كان الغذاء .

وهي لم تخدعهم كذلك ، لأنها ساقطتهم إلى حفظ نوعهم
لذة جسدية أو بعاطفة من عواطف الشوق والحنان ، ولكنها
تكلم أكثر من لغة واحدة حين تعبر عن حقائقها ، وكلها
مد ذلك صدق حاصل على اختلاف العبارات .

فالروحانيون لا يضللون العقول ، والماديون لا يعرفون

معنى التضليل إذا كانوا يعبرون عن حقائق الحياة بلغة واحدة لا تقبل التنويع . فمادتهم التي يجمعون فيها الصدق كله أشد تضليلاً للأحياء من كل دعوة روحانية ، إذا جعلنا اختلاف التعبير عن قوى الحياة من قبيل التضليل ، أو جعلنا اختلاف الشيء في الحس ، وفي وظائف البنية الحية ، آية على التناقض والبطلان .

هكذا تعبر الطبيعة عن غذاء الأبدان .
فلماذا نكذبها إذا هي عبرت بمثل هذا التعبير عن غذاء
الأرواح ؟

إننا إذن لا نصدق مع الروحانيين ولا نصدق مع الماديين .
ولك أن تكون مادياً ، أو واقعياً ، أو حسياً ، في
منتمشة الألفاظ التي قالها غاندى والآراء التي بشر بها
كما نشاء . ولكنك لن تكون مادياً ، ولا واقعياً ولا حسياً ،
إذا أنكرت الواقع المحسوس .

والواقع المحسوس أن غاندى قد حفز روحانية الهند
إلى عمل من أعظم أعمالها في تاريخها الطويل ، وأنه قد أتى
بخارقة لم يأت نظراًؤه بأعظم منها في جميع أطوار التاريخ .

عقيدته

يسبق إلى الظن — حين يذكر غاندى زعيم الهند —
أنه يدين بالبرهمية : ديانة الهند الكبرى ، وأقدم عقائدها
المعروفة .

ولكن الحقيقة أنه لا يدين بالبرهمية ولا بالبوذية ،
التي هي أشهر المذاهب في خارج الهند بعد الديانة البرهمية .
وإنما يدين — كما أسلفنا في الكلام على نشأته — بنحلة
خاصة من نحل تلك الديانة القديمة ، وهي النحلة الجينية ،
ولا يزيد عدد أتباعها في الهند اليوم على مليون ونصف مليون .
ولا غنى في الكلام على عبقرية غاندى عن تقرير هذه
الحقيقة الهامة ، لأنها توضح لنا تلك العبقرية من جانبين
خطيرين : أحدهما أن الجينية — مع كونها نحلة دينية — هي
في الواقع ثورة قومية على سلطان الغزاة الآريين ، بل هي
أقدم ثورة قومية روحية في الهند على ذلك السلطان . لأنها
أنكرت نظام الطبقات الذى سجل به الغزاة سيادتهم على
الشعوب الهندية الأصيلة ، وأخذت في كتابة أسفارها
المقدسة باللغة الشعبية المعروفة بالبراكريتية ، وهي مشتقة

من السفسكريفية القديمة لغة الغزاة الآريين ، مع تحريف
وزيادة طرأت عليها من اختلاط الغرباء بأبناء البلاد الأصلاء .
فالمهاثما إذن قد ورث دواعى الثورة على - السيادة
الغالبية - من عقيدة الجينية ، ولم يكن فى حاجة إلى
جهد كبير ليتجه بفكره وطبعه إلى مقاومة الغزاة الجدد
فى القرن العشرين . . .

وقد ورث كذلك دواعى الإصلاح الاجتماعى من تلك
العقيدة القومية الروحية ، فلم يكن فى حاجة إلى مشقة كبرى
للتفكير فى إنصاف الضعفاء ، والتسوية بين الطبقات .
أما الجانب الآخر الذى توضحه لنا تلك العقيدة من عبقرية
غاندى ، فهو مصدر آدابه الروحية التى كثر الكلام عليها بين
الكتاب من الغربيين .

فقد سمعنا كثيراً أنه مدين بآداب السلام والمحبة لهذا
الكاتب أو ذاك من الحكماء الأوربيين ، وذكروا اسم
وتلستوى ، الحكيم الروسى على الخصوص ، لأنه كان أوفر
الأعلام العالمين نصيباً من أحاديث الناس وتعليقاتهم ، حين
نشأ غاندى وأخذ فى الاطلاع على الثقافة الأجنبية ، ولأن
غاندى نفسه قد خاطبه مرة خطاب التلميذ للأستاذ ، وأشار
إليه غير مرة فى أحاديثه ومقالاته ، وجاءت دعوته بعد دعوة

تلتوى في البلاد الروسية ، على مبادئ السلام والمحبة
واجتناب العنف والانتقام .

إلا أن الواقع الذي لامرأ فيه أن مبادئ غاندى جميعاً
مستمدة من العقيدة الجينية ، وأنه لم يدع إلى خطوة واحدة
في الإصلاح الاجتماعى أو السياسى لا ترد بحملتها وتفصيلها
إلى تلك العقيدة . وكل ما استحدثه فيها من الخطط العصرية
فهو من تصرفه ووحى عبقريته ، ونزعة مزاجه وتفكيره ،
على حسب الحوادث والمناسبات .

فعبقرية غاندى لا تُفهم على حقيقتها بمعزل عن العقيدة
الجينية ، وهى أحوج النحل الهندية فى خارج الهند إلى شىء
من البيان والتوضيح .

تنسب هذه العقيدة إلى «الجينا» بمعنى الظافر أو الغلاب ،
ويراد بالغبلة هنا غلبة الإنسان على شهواته وغوايات طبعه ،
ويلقب « بالجينا » عندهم كل إمام من أئمة الهداية يظهر فى أوانه
المقدور ، وهم يظهرون على التوالى فى كل دورة من دورات
الدهر الطويلة ، وهى عندهم دورات أبدية بغير نهاية ولا بداية ،
تعود كلما انتهت دوايك من أزل الأزال إلى الأبد الأبد .
ويظهر فى كل دورة من الدورات أربعة وعشرون إماماً
متلاحقين على حسب الحاجة التى تدعو إليهم ، ثم يفارقون

عالم الجسد إلى غير عودة ، لأنهم يخلصون من الجسد أرواحاً مصفاة ، لا تبقى فيها بقية من شوائب المادة تردهم إلى حياة التجسيد

والإمام الذي يدين به غاندى هو آخر هؤلاء الأئمة في هذه الدورة الدهرية ، ظهر في القرن السادس قبل الميلاد ، وكانت دعوته معاصرة للدعوة البوذية ، ولعلها قد سبقتها بحيل أو نحو جيل ... أما إذا أخذنا بكلام أتباعها ففى أقدم من ذلك بعدة أجيال ، بل بعدة دورات من آماد الأزل القديم

ويسمى هذا الإمام « ترثنكارا » ماهاثيرا Tirthankara Mahavira ، وهو اسم مركب من عدة أسماء ، معناها : البطل العظيم صانع المعبر أو القنطرة ، كناية عن العبور باتباعه في طريق النجاة .

فكلمة « ترثا » معناها المعبر أو القنطرة ، وكلمة « كارا » معناها الذى يصنع ، وكلمة « فيرا » معناها البطل أو الظافر ، وكلمة « ماها » معناها العظيم ، ومنها كلمة « المهاتما » التى لقب بها غاندى بمعنى الروح العظيم .

والظفر الأعظم الذى يستحق به الإمام لقب الغلاب أو « الجينا » من كلمة « جى » - أى النصر - هو الظفر على

الشهوات الكبرى ، وهى الغضب والكبرياء والجشع والخداع ، ومن الشهوات التى يتغلب عليها ما هو دون ذلك فى القوة وصعوبة المراس ، وهى الهم والخوف والاشمئزاز ولذة الجنس ، وما إليها من اللذات .

وخلاصة الدين عندهم اجتناب الأضرار بجميع الأحياء . ويلخصون هذه الخلاصة فى كلمة واحدة هى كلمة « أهمساً .. » وهى كلمة مركبة من كلمتين : همزة النقي عندهم ، وهمساً : بمعنى الإضرار .

وهم لاجل ذلك نباتيون لا يبيحون أكل الحيوان على اختلافه ، فيحرمون لحوم جميع الأحياء من الأنعام والماشية والسماك والطير ، ولا يأكلون البيض والشهد ، ويستثنون اللبن لأنه مما يرضعه الإنسان فى مهده ، فلا تحرم عليه ، والألبان ، لأن الرضاعة مقترنة بالرحمة والحنان .

ومن عجائب اعتقادهم أنهم آمنوا بوجود ألوف الألوف من الجسيمات الحية التى لا تراها العين قبل أن يعرفها العلم الحديث . فحرموا الخمرة والجمعة لأن الاختمار يقضى على تلك الأحياء ، وحرم غلاتهم كل نبات ينمو تحت الأرض — كالبطاطس والفجل والجزر — لاعتقادهم أنها تحمل من باطن الأرض ألوفاً لا عداد لها من تلك الأحياء الصغار .

وليست مسألة الأوامر والنواهي عندهم مسألة تحليل
وتحريم، كما هو شأنها في جميع الديانات. ولكنهم يعملون الشيء
أو يحتنبونه لأن العمل به أو اجتنبه يناسبان طبيعة الروح.
فالسمو إلى عالم الروح هو غاية الغايات من ترقى الإنسان
في معارج الحياة.

وعلاوة الاقتراب من عالم الروح أن المرء لا يقتل ولا
يغضب ولا يسيء إلى أحد من الأحياء، لأن شواغل الجسد
هي التي تسول له العدوان وتشير فيه البغضاء، فمن غلبته هذه
الشواغل بقي في عالم الجسد وعاد إليه، ومن غلبها فآية الغلبة
التي يسمو بها إلى عالم الروح هي المحبة، والسلام. إذ كانت
الروح لا تشتمل في طبيعتها على دأعية من دواعي النفور
والنزاع، وإنما تأتي هذه الدواعي جميعاً من شواغل المادة، أو
من الكارما، كما يسمون هذه الشواغل، ويطلقونها على
كل عمل من الأعمال الجسدية التي تحول بين الإنسان وبين
الصفاء والنجاة.

وللأحياء عندهم خمس درجات يعلو بعضها فوق بعض
على حسب نصيبها من الإحساس: أول هذه الدرجات درجة
الأحياء ذات اللبس، وتليها درجة الأحياء ذات اللبس والذوق،
وتليها درجة الأحياء ذات اللبس والذوق والشم، وتليها درجة

الأحياء ذات اللمس والذوق والشم والسمع والنظر ، وتليها
درجة الأحياء ذات العقل أو الروح ، ماناس ، Manas وهي
نوع الإنسان .

وفي الإنسان وحده تتجلى الروحانية العليا في الوجود ،
ومنهم من يعتقد أن الروح الإلهي لم يصعد إلى الروحانية
الإلهية من غير هذا الطريق .

ولابد من الولادة مرة بعد مرة للخلاص من أوهام
الجسد ونقائص المادة وحجب الشهوات . فإذا مات الإنسان
ترك في الأرض جسده وذهبت روحه بجسدين متلابسين
أحدهما أرق من الآخر وأصفي ، ولن يخلص من محنة التجسيد
حتى ينسلخ عن جميع هذه الأجساد . ولولا ذلك لاستطاع
الإنسان أن ينجو إلى عالم الروح بقتل نفسه بيديه ، وهو عندهم
غير جائز له ، كما لا يجوز له قتل سائر الأحياء . ومن هنا
لا يقولون بقتل المرأة نفسها بإحراقها مع زوجها ، كما تقول
الكثيرة من البرهمنين .

وليس الزواج محرماً في النحلة الجينية بطبيعة الحال ،
ولكن الإمام الذي يرتفع إلى درجة الهداية في دورة من
الزمن لا ينجو من العودة إلى الولادة ولا يبلغ الموكشا ، أي

الخلاص إلا إذا عصم نفسه من كل علاقة جنسية ومنها
الزواج . فهو يولد من جديد مادام يلد أو ينقاد لغريزة
التناسل ، ولو لم يكن له أبناء .

ولا ينحصر الزواج بين الجينين في أبناء طبقة واحدة .
لأن الجينية لا تدين بتفاوت الطبقات ولا تجعلها أصلاً من
أصول الدين . فعمل الإنسان هو الذي يرتفع به أو ينحدر
في طبقات الخليقة . وتنص كتبهم نصاً صريحاً على أن الإنسان
بعمله وحده يصبح من البرهمن أو الكشترية أو الفيشا أو
السدرا ، وهم المتبوذون . ومن الرذائل التي تحول عندهم بين
الإنسان والخلاص الروحاني أن ينظر إلى أحد نظرة استعلاء
ولو كان من المجرمين . فالحب Daya هو ملاك جميع الأخلاق
والفضائل ، وآية الحب أن تحسن ، ولا تنتظر الجزاء ، وأن
تفرح لفرح غيرك وتحزن لحزنه ، وتبتئس لسوء حظ المسىء
الذي حرم نعمة لإحسان .

وعلى كل جيني أن يروض نفسه على الشظف والقناعة
والصبر وضبط الشعور ، وأن يعطى دائماً ولا يأخذ من أحد
شيئاً بغير رضاه .

• • •

وتعتبر الجينية فلسفة كونية كما تعتبر من ديانات التعبد والسلوك .

فالكون عندهم عناصر أربعة هي : الزمان ، والمكان ، والروح ، والمادة . ويضاف إليها عنصران آخران يربطان بينها ، وهما : الحركة ، والسكون .
والمادة عندهم مركبة من أجزاء دقيقة لا تتجزأ ، كالجوهر الفرد في تعريف فلاسفة اليونان .

ولا تسبق الروح الجسد في تركيب الإنسان . بل تنشأ الحياة الجسدية قبل الحياة الروحية ، ثم تترقى الروح إلى مرتبة الصفاء بما تحاوله من مغالبة التوازع الجسدية واستخلاص حريتها من القيود المادية . ولها في ذلك ثلاث مراحل : أولها سابقة لتطور قواها ، وثانيها في خلال هذا التطور ، ونهايتها تأتي بعد انتهاء التطور وبلوغ مرتبة الخلاص والصفاء .

وعلاوة التطور الناجح ثلاث : عقيدة الحق ، ومعرفة الحق ، وعمل الحق . ولا سبيل إلى هزيمة الروح في صراعها مع الجسد إذا تناسقت فيها هذه الصفات .

وهم يقولون بالروح الذاتية لكل حي من الأحياء ، ولا يقولون بفنائها في روح أكبر منها ، ويخالفون بذلك عقيدة البراهمة الأولين في وصف الله وتجريده من الذات ،

وقد يصفون الله بصفات الخلق والتكوين ، ويتجهون إليه بالصلاة طلباً للهداية والتعليم والمعونة على قن الشهوات . فالجينية تدن بالذات الإلهية ، ولا تعتبر الإله « معنى » خلوا من الوحدة الذاتية ، ولكنها تستلهم الصواب كما يستلهم التلميذ معلمه ، وتسترشده كما يسترشد السارى بدليله في ظلمات المجهول ؛ وتقول لاتباعها إن الله لا يعين أحداً ما لم يكن منه عونٌ نفسه . فلا مناص من عمل الإنسان واجتهاده قبل كل خلاص واهتداء .

وفي جملة هذه الفلسفة السكونية ما يرجع الظن برجع الفيلسوف الألماني « هيجل » إليها ، في تفصيل مذهبه الذي تسمى بالمثالية الثنائية *Dialectic Idealism* .

فالجينيون يقولون بأن الوجود الصحيح جوهر *dravya* . والجوهر عندهم لا بد أن يحتوي فيه ثلاث حالات : حالة النشوء ، وحالة النقض ، وحالة الدوام .

« فلا يظهر شيء في الوجود بغير نقض ، ولا يكون نقض بغير نشوء ، ولا تنيل إلى نشوء ونقض في غير دوام » .

وخلاصة مذهب « هيجل » أن كل شيء ينشئ ، ونقيضه . ثم يجتمع الشيء ونقيضه في موجود أكمل من الموجود الأول ، ثم يعود هذا الموجود الأكمل فينشئ نقيضه مرة أخرى ،

حتى تستوفى الحقائق وجودها من جملة وجوه ، ولا تنحصر
في وجه واحد .

وهذا التطور في مذهب « هيجل » ينتهى إلى ظهور
« العقل الواعى » فى السكون حتى يظهر فيه الانسان . . وقد
أسلفنا أن الجينيين يقولون أن تطور الانسان هو المظهر
الذى تتجلى به الروح فى هذا الوجود .

وتشتمل الكتب الجينية على وصايا كثيرة تدل على أنهم
يقينون فى عقيدتهم الدينية ، وليسوا من الشكوكيين
« اللاادريين » . كما تدل على أنهم يقينون جازمون فى مسائل
الأخلاق .

وهذه أمثلة من تلك الوصايا مقتبسة من كتبهم الكثيرة :

الإحسان بغير عقيدة ، لن يكون وسيلة للخلاص .

على المرء أن يعامل الخلائق جميعاً ، كما يحب أن تعامله .

إن تأملات الشكوكيين لا تنتهى إلى معرفة . فهم بأنفسهم
لا يصلون إلى الحق ولن يصلوا بغيرهم إليه .

الرعاة الصالحون ، السكّان ، يرحمون جميع الكائنات ،
ويجتنبون الخبائث ، ولا يمدون أيديهم إلى طعام يصنع لهم
خاصة ، ولا يقدمون على شر أو إساءة .

غلبة النفس عسيرة ، ولكنها إذا تيسرت فكل شيء
مغلوب .

لا معرفة للحق بغير عقيدة في الحق ، ولا سلوك على
الحق بغير معرفة للحق ، ولا خلاص بغير سلوك ، ولا كمال
بغير خلاص .

ينتصر الإنسان على ألوف من الأعداء الشجعان ، ولكنه
أعظم من ذلك انتصاراً إذا لم ينتصر على غير إنسان واحد :
هو نفسه .

من جمع حياته في روحه لم يرهبه الموت إلا كما يرهب
المرء من تبديل كساء بكساء .

الأعداء والأقرباء ، والنعم والبأساء ، وحفنة من التراب

وقبضة من الذهب سواء عند الناسك المنقطع للروح Shramana.

اجهد نفسك واحكمها .

قد يمسح الروح كلباً ، وقد يصعد الكلب إلى عليين

وسائل ثلاث لا تسيء بها إلى أحد : كلمات ، وأفكار
وأعمال .

شر من الكافر ، من يضع شريعة القتل .

لاشقاء لمن لا وهم له ، ولا وهم لمن لا شهوة له ، ولا شهوة
لمن لا مطمع له ، ولا مطمع لمن ليس في يده شيء .

كل ما حققته والفكر هادئ ، والحس مغلوب ، فذلك
هو الروح المطلق .

للإجرام وسائل ثلاث : عمل الجريمة ، والإغراء بها ،
والثناء عليها .

الحكمة تعترف بحق الشريعة .

أقسم على خمس : لا تقتل ، لا تكذب ، لا تسرق ،
لا تسلم للشهوة ، لا تتعلق بعروض الحياة .

في كل ما يعرض للروح من أحوال بعد أحوال ، هي
وحدوها مسئولة عن كل حال .

هذه خلاصة كافية في هذا المقام للعقيدة الجينية — عقيدة
غاندى — وهي أهم شيء في كيان غاندى وسيرته وعمله . لأن
العقيدة عنده مقدمة على السياسة وعلى الوطنية ، وهي مرجعه
فيما يأخذ وفيما يدع من وجوه الإصلاح ووجهته في دعوة
الحرية ومبادئ الأخلاق ، وهي باعثة الثورة فيه على القوة
الغالبية ، ومعدن السلاح الذي استعد به لتلك الثورة : سلاح
الحب ومقاومة العدوان بالصفح والعفوان .

وقد أشرنا في فصل آخر إلى تعليقات لغاندى على دياناته
وعلى الديانات عامة ، ونشير هنا إلى العقائد التي يستغرب من
مثل غاندى — في استنارته وجراته على إنكار ما لا يسوغ
في ذهنه — أن يدين بها من هذه النحل البرهمية ، وفي مقدمتها

عبادة البقرة أو حمايتها كما يؤثر هو أن يسميها في تعبيره عن هذه العقيدة . فإن شعائر دينه تنقسم عنده إلى نوعين : أحدهما يقبله عقله كتناسخ الأرواح ورجعة الإنسان إلى الحياة الدنيا عدة مرات ، والآخر يفسره على وجه خاص ليقبله كما يقبل العقائد السائغة في تفكيره . ومن ذلك عبادة البقرة التي لا يجوز عنده أن تُعبد على التآليه والتقديس ، وإنما تعبد لأن عبادتها أو حمايتها رمز للصلة بين الأحياء الناطقة والأحياء العجاء ، أو رمز لشمول الحياة في العالم لكل كائن تدب فيه حياة . وعنده أن حماية البقرة أصل جوهرى من أصول الديانة البرهمية على هذا الاعتبار ، وأنها أعجب ظاهرة في تطور الإنسان . إذ كانت البقرة على الاعتبار المتقدم رمز ما دون الحياة الإنسانية من ضروب الحياة التي تناولها التطور والارتقاء ، وهى أصلح تلك الأحياء لإبراز هذا الرمز الشامل فى أطيب مظاهره . فإيست هى بحيوان مفترس ، وليست هى بحيوان مؤذ ، وليست هى بالحيوان البعيد من معيشة الإنسان منذ أقدم عهوده . وقد كتب عنها يقول : « إن أمنا البقرة أبر فى كثير من الأمور من الأم التى تلدنا . فإن الأم التى تلدنا تعطينا اللبن نحو سنتين وتنتظر منا أن نخدمها طويلا متى بلغنا أشدنا ، أما أمنا البقرة فلا تنتظر منا شيئا غير الحب والعشب » .

وقد كان يفكر أحياناً كلمة السيد المسيح : « أحبب
جارك كنفسك » ، ثم يضيف إليها : « وكل كائن حي للإنسان
جار » .

ولا يفوتنا أن نستعيد دائماً في هذا الصدد كلمته التي
يقولها عن هوى كل إنسان لديانته وإن لم تسلّم من عيب .
فقد كان يقول : « إن المرء يحب ديانته كما يحب امرأته ، وهو
يحب امرأته وإن لم تكن أجمل أتقى في نظره ، لأنها هي
امرأته ، لا لأنها أفضل النساء » .

وما نحسب أن غاندى كانت تفوته الفطنة لغرائب ديانته ،
ولكنه كان يأخذها على العلات ، لأن الإيمان مع التجوز
في بعض رموزه خير عنده من ترك الإيمان .



صلاة

عقيدة غاندى هي أهم شيء في بديان شخصيته .
وصلاة غاندى هي أهم شيء في بديان عقيدته .
فنحن لهذا نقرب من فهمه كلما اقتربنا من فهم صلاته ،
لأن الصلاة عند لا تبحث عن طلب أو استغاثة أو ابتال .
ولكنها تبحث إلى حس فوق الحس ، وفوق التفكير ، وفوق
الضرب والابتال .

وهي عند : كما هي عند الجنيين عامة ، أعلى مراتب الوعي
الذي يتاح للكائن الموجود .

فالروح الإلهي في اعتقادهم ساري في جميع هذه الموجودات ،
مبثوث في جميع الأجسام والأجساد ، ولا يزال الإنسان
محصوراً في أرواق الجسد أو في أرواق المادة على العموم ،
ما دام معتمداً على أخواس ، أو على العواطف أو على التفكير
في إدراك ما حوله . ولكنه يرتقي إلى مرتبة من الوعي أعلى
من مراتب التفكير ، عند ما يدرك الروح خالصاً منزهاً من
هذه الأرواق .

فهر لا يصل بالחס إلى شيء أرفع من المادة أو
المحسوسات المادية .

وقد يرتقى بالتفكير إلى شيء أرفع مما يدركه الحس ،
ولكنه لا يتجاوز به حدود المحسوسات .

وهناك مرتبة من التفكير أعلى من مرتبة العقل المنطقي ،
وهي مرتبة التأمل ، والانقطاع بالوجدان عن كل ما يحيط
بالإنسان .

ففي هذه المرتبة يستطيع الإنسان أن يسيطر على جسده
ويسيطر على الطبيعة ، ويرتقى إلى الحالة التي يقهر بها المادة ،
ويصنع الخوارق ، ويخالف العادات ، وهي تسمى عندهم حالة
« السديهي » Siddhis أو الصديقية إذا كان للفظ صلة باللغات
السامية . ولكن هذه الحالة لا تزال دون حالة الخلاص
المطلق بكثير ، وهي التي يسمونها كيفااليا Kaivalya أو التجلي
الاعظم . بل ربما خيف على صانع الخوارق أن يفسد كل
ما صنع إذا أعجبه قدرته على تسخير الطبيعة فأغتر بها ،
واستمرسل فيها ، لأنه لا يزال محصوراً في « إنانيته » الباطلة ،
كما أعجبه السيطرة وأحب المزيد منها . وإنما ينفعه صنع
الخوارق لسبب واحد ، وهو تثبيت يقينه بالسير على الهدى
في طريق الخلاص ، وأنه قد بلغ إلى مرتبة ينتقل منها إلى

المرتبة التي تليها ، وهي غاية الغايات التي تسمو إليها قداسة الانسان .

ومتى ترقى القديس إلى مرتبة الخلاص فهناك يلتقي بالروح الإلهي خالصاً مجرداً من علاقات كل مادة وكل محسوس ، ويلج الحقيقة المجردة التي تضل عنها الحواس والعقول ، وينتقل إلى سماء من السعادة المطلقة لا توصف ، ولا تقبل الوصف بالكلمات ولا بالأفكار ، لأن الكلام مقيد بالفكر ، والفكر لا ينطلق من جميع القيود . ويطيب للقديس أن يستعيد هذه اللحظات كلها استطاع ، وهو لا يستطيعها في كل حين .

وقد كان غاندى يصلي ليستعيد هذه السعادة ، ولا ينتظر شيئاً غيرها من الصلاة ، ولم يعنه قط أن يصنع الخوارق أو يسيطر على قوانين الطبيعة . لأن الخوارق لا تقصد لذاتها ، ولا تراد إلا على سبيل البرهان ، ولا حاجة بالمتثبت إلى برهان .

وكان يود لو ينقطع للصلاة مدى حياته ، ولكنه كان يعلم إن لقاء الروح الإلهي مدى الحياة أمر يفوق الطاقة الإنسانية ، فكان يتزود منها بغاية ما يطيق ، ويؤثر هذا الزاد على كل زاد فيه غذاء للجسد ، أو غذاء للعقل ، أو غذاء للروح .

قال في محاضرة له عن الصلاة : « إن من يختبر سحر الصلاة قد يستغنى عن الطعام أياماً ، ولا يستغنى عن الصلاة لحظة واحدة . إذ لا سلام في داخل الضمير بغير صلاة . » وقال لسامعيه من الطلاب في تلك المحاضرة : « إن في صدر الإنسان لصراعاً أبدياً ثاراً بين قوى الظلام وقوى النور ، ومن لم يكن له مرفأ أمين من الصلاة يؤذ به ، فهو خالق أن يقع فريسة لقوى الظلام . »

ثم قال : « إن الصلاة هي صميم قلب الحياة الإنسانية . وهي الجوهر الحيوي في كل ديانة ، وقد تكون توصلاً أو اتصالاً من باطن الروح : ولكن الغاية التي تنتهي إليها واحدة . فإنها حين تكون توصلاً ينبغي أن يكون التوصل التماساً لتطهير الروح وتنظيفها من الأدران ، وانتشالها من أطباق الجهل والظلام التي تطبق عليها . فكل من تطلع إلى إيقاظ الجانب الإلهي في نفسه فلا مناصر له من اليأس بالصلاة . إلا أن الصلاة ليست تمريناً في الكلمات أو التراتيل ، وليست مجرد تكرار للصيغ والعبارات . فما من تكرار لتراتيل «الريمانا» ، إلا وهو عقيم إن لم تصحبه يقظة في الروح ، وخير في الصلاة قلب بغير كلمات من كلمات بغير قلب . . . » وهذه هي الصلاة كما يصفها للمتعبين ، وقد كان يخاطبهم

حين يكلمهم عنها باللغة التي يخاطبونه بها ، وهي لغة العلوم
التجريبية ، فكان يقول لهم : « إن ففع الصلاة قد ثبت للمصلين
بالتجربة من قديم الزمن . فلا يجوز لهم إنكارها إلا بعد
تجربتها ، ولن يجربوها حتى يجدوا في التجربة ولا يتخذوها
عبثاً أو سخرية . » وكتب له أحد الطلبة يقول : « إنه لا يصلي
لأنه لا يعلم ما جدوى الصلاة ؟ » فقال له : « ألا يتعلم التلاميذ
برامجهم إلا بعد أن يعرفوا تلك البرامج ويعلموا جدواها ؟ »
وقال في هذا الصدد : « إن العقل شيء عظيم ، ولكنه يصبح
غولاً كريهاً إذا ادعى لنفسه أنه قادر على كل شيء محيط بكل
شيء . وأن نسبة هذه القدرة إليه هي نمط ردىء من الوثنية .
فالعقل عند هؤلاء العقليين وثن يعبدونه كما يعبد الوثني حجراً
أو نصباً ، ويعتقد فيه أنه إله . »

وأشار إلى التجربة في حالة الإنكار فقال : « إن الذين
انقطعت الصلة بينهم وبين الله وامتنعت عليهم وسيلة الاتصال
به بوحى الغريزة أو المعرفة أو التقليد ، قد شعروا ، على الأقل ،
بسوء الحالة وجربوا أنها حالة محزنة موحشة في أعماق الطوية ،
ومنهم برادلو Bradlaugh الفيلسوف الملحد المشهور . .
فالتجربة في الحالتين تدل على قيمة الصلاة . »

وغاندى يذكر التجربة للذين يناقشونه في الصلاة بأساليب

العلوم التجريبية . ولكن الصلاة في حياته ليست تجربة ولا استطلاعاً ولا وسيلة إلى غاية . إنما هي غاية الغايات ، لأنها هي التقاؤه بالروح الإلهي في أفق أعلى من أفق الحس والتفكير والمراجعة . وليس للإنسان غاية أسمى من هذا اللقاء .

فإذا شعر بأنه قد صلى ، وأن صلاته قد استولت عليه ، ونقلته من شواغل ذاته إلى أفق الروح الإلهية ، خرج من صلاته ماضياً فيما آمن به واتجه إليه ، ولم يبال ما يعرض له من النقااض والمجادلات عند التطبيق أو المناقشة ، لأن المناقشات والمجادلات والنقااض من أحابيل الفكر التي يصطاد بها صغائر الأمور ، ولكنه لا يبلغ بها أن يحقق بعظائم الأمور .

وإيمان غاندى باصلاة على هذا المعنى مفتاح من مفاتيح هذا العقل الذي كان يتناقض في وصاياه وأعماله ، ولم يكن من الجهل بحيث يخفى عليه هذا التناقض في لغة الفكر والتعبير ، ولكنه كان يحتمل بالنقااض والمناقشات إلى مرجع عنده فوق مرجع الفكر ومرجع البرهان ، وهو النفاذ إلى مصدر الفكر ومصدر البرهان من الروح الإلهي المحيط بكل هذا الوجود ، وبكل ما فيه من الأجزاء والفوارق والمفارقات

لقد تقدم أن رسول دالاهمسا ، قد بلغ من ثقته
بسلاحه أنه وصفه لهتلر قبيل الحرب العالمية الثانية ، وقد
حاول أن يقنعه بمضاء هذا السلاح في كل مشكلة ، وأنه
لأَمْضَى من كل ما أعد من عدة ، وكل ماجند من جنود .
ولكن رسول دالاهمسا ، قد عاش حتى شهد التجربة
الأولى لأَمْضَى سلاح من أسلحة الحروب عرفه المقاتلون :
سلاح أَمْضَى من كل ما أعد هتلر وأعدده محاربوه في فاتحة
الحرب العالمية الثانية : وهو سلاح القذيفة الذرية .

وظنت الصحفية الأمريكية دمارجريت بورك هوايت ،
أنها تفحمه بسؤاله عما أعدده لمقاومة القذيفة الذرية ، فلم
يصف لها عدة للمقاومة غير عدته المعهودة التي تفل عنده
كل سلاح : وهي اجتناب العنف والصلاة .

قال : « أقاومها بالصلاة العاملة .. أخرج إلى العراء ، وأدع
ربان الطائرة يرى أنني لا أواجهه بوجه عدو . إنه لا يرى
وجهي على ذلك العلو الشاهق ، ولكن الصلاة القلبية التي
لا تـكـنّ له ضرراً ولا تنطوى على بغضاء ، تبلغه في سمائه
فتفتح عينيه . إن الذين أماتهم القذيفة الذرية في هيروشيما
لو أنهم ماتوا وهم في صلاة عاملة ، واستقبلوا الموت والصلاة
في قلوبهم دون أن تنفرج شفاههم بأنة ألم أو صيحة خوف ،

لما انتهت الحرب كما انتهت بتلك النهاية المخزية ،
ونعترف بأنه جواب غير مقنع ، ولـكننا نعترف أيضاً
بأنه ما من جواب يجيب به ناظرٌ إلى خير الإنسانية كلها ،
هو أدنى من هذا الجواب إلى الاقتناع .

